صفحات ونفحات

يا سميرى روح بمكة روحى

بقلم

الدكتور محمد مصطفى حلمى

أستاذ الفلسفة الإسلامية والتصوف بكلية الآداب بجامعة القاهرة

يا سميرى روح بمكة روحى ... شاديا إن رغبت فى إسعادى
فذراها سربى وطيبى ثراها ... وسبيل المسيل وردى وزادى
كان فيها أنسى ومعراج قدسى ... ومقامى المقام والفتح باد
نقلتنى عنها الحظوظ فجذت ... وارداتى ولم تدم آورادى
آه لو يسمح الزمان بعود ... فعسى أن تعود لى أعيادى

بهذا الدعاء الرائع الجميل تحدث سلطان العاشقين المشتاقين، وإمام الواجدين الذائقين، عن طور لعله أهم وأخطر أطوار حياته الروحية جميعاً، وهو ذلك الطور الذى قضى فيه خمسة عشرة عاما من عمره فى أرض الحجاز المقدسة، حيث استظل بظله الوارف، وفتح عليه بأرق اللطائف وأدق المعارف، فكان ما كان مما امتلأ به قلبه من الأسرار، وأشرق به باطنه من الأنوار، ثم كان ما كان بعد ذلك من انقطاع هذه الأنوار، واختفاء تلك الأسرار، فإذا هو فى الأولى يشدو بنغمات الأنس، ويستلهم نفحات القدس، وإذا هو فى الثانية يشكو مما وقع له من فراق لتلك الربوع التى وجد فيها نجوى روحه وراحتها، وسلوى نفسه وسعادتها، ويتبرم بما أحسه فى ذلك الفراق من لوعة وحسرة، ومن أنين وحنين، ثم هو يرسل هذا كله ألفاظا وعبارات، تبدو فى ظاهرها أبياتا وشطرات، ولكنها فى حقيقتها لمعات ونفحات.

وليس من شك فى أن سيرة ابن الفارض التى سارها فى حياته الروحية ، وسلوكه الذى آثره فى هذه الحياة الروحية ، وقصائده الطوال والقصار التى أودعها أشواقه وأذواقه ، وصور فيها سياحاته ورياضاته ، وفتوحاته ومشاهداته ، وعبر فيها تصريحا تارة ، أو أشار فيها تلويحا تارة أخرى ، ليس من شك فى أن هذا كله يعد بحق مرآة صادقة تتجلى على صفحتها الدوافع النفسية ، والمنازع القلبية ، وما إلى هذه وتلك من العوامل الداخلية والخارجية ، التى عملت عملها ، وآتت أكولها فى نفس الشاعر الصوفى العربى المسلم ، بحيث جعلت من الحجاز قبلته ، ومن مكة كعبته ، ومن تلك البقاع الفياحة بأريج النبوة المحمدية وسيلته وغايته . ويكفى أن ننظر فى أى من قصائد ابن الفارض لنتبين إلى أى حد وعلى أى وجه ، جاء ديوانه ترديدا رائعا لما ملك عليه قلبه من التمنى ، وما أخذ به لسانه من التغنى : فهو يتمنى أن يمس ويصبح فإذا هو فى مكة ينعم بجوار أحبته من أهلها ، ويسعد بالسياحة فى ظلها ، ويجد الأمن فى التنقل بين ربوعها والطواف حول حرمها ؛ وهو يتغنى جمال البقاع المقدسة التى ألم بها ، أو سعى بينها ، أو أقام فيها ؛ وهو سواء فى تمنيه أو فى تغنيه شاعر بارع يستطيع بما أوتى من دقة الذوق ورقته ، ومن صدق الشعور وحيويته ، ومن رشاقة التصوير وأناقته ، ومن حلاوة التعبير وعذوبته ، أن يجعل من أسماء الأماكن والبقاع الحجازية التى يرددها فى شعره عقودا منظومة فى سلك واحد ، وأن يضفى عليها من روحه الفياضة بالحب والشوق ، والأنس والذوق ، أثوابا من الجمال الروحى الفتان ، فإذا هى والقصائد التى أشتملت عليها ، وتألفت منها ، صور لها أثرها الروحى فى قلوب العاشقين للجمال الإلهى ، كما أن لها خطرها الفنى لدى نفوس الذائقين للحسن الطبيعى .

وإذا كان ذلك كذلك ، وأردنا أن نعرف كيف كان التمنى والتغنى عنصرين أساسيين فى حياة سلطان العاشقين الروحية من ناحية ، وفى آثاره الذوقية من ناحية أخرى ، وإلى أى حد كانت مكة المشرفة وما يتصل بها من بقاع مقدسة هى المحور الرئيسى الذى يدور عليه هذا التغنى وذلك التمنى ، فلا بد من وقفات عند بعض الأحداث التى كان لها أثر فى حياة الشاعر الصوفى وفيما نظم من شعر فى الحب الإلهى ، وعند بعض الأبيات التى كانت سبيل سلطان العاشقين إلى التعبير

عن حبه الإلهى ، وعما يتصل بهذا الحب من شوق إلى مكة ومغانيها ، ومن إقبال على خيامها وأهليها :

لقد أخذ ابن الفارض نفسه بالرياضة والمجاهدة منذ مطلع صباه ، وظل يأخذها من حين إلى حين بالسياحة فى وادى المستضفين بالجبل المقطم . وإنه ليحدثنا بأنه بعد وفاة أبيه عاود التجريد والسياحة وسلوك طريق الحقيقة ، ولكنه لم يفتح عليه بشىء ؛ ويحدثنا أيضا بأنه حضر يوما من السياحة إلى القاهرة ، ودخل المدرسة السيوفية ، وهنالك على باب هذه المدرسة وجد رجلا شيخا بقالا يتوضأ وضوأ غير مرتب ، غسل يده ثم غسل رجليه ثم مسح برأسه ثم غسل وجهه ، فقال له ابن الفارض : « يا شيخ ، أنت فى هذه السن على باب المدرسة بين فقهاء المسلمين وتتوضأ وضوأ خارجا عن الترتيب الشرعى » ، فنظر إليه الشيخ وقال له : « يا عمر ، أنت ما يفتح عليك فى مصر ، وإنما يفتح عليك بالحجاز فى مكة شرفها الله تعالى ، فاقصدها فقد آن لك وقت الفتح » . وهنا يقول ابن الفارض إنه علم عندئذ أن الرجل من أولياء الله تعالى ، وأنه يتستر بالمعيشة وإظهار الجهل بلا ترتيب الوضوء . وهنا أيضا يحدثنا ابن الفارض بأنه جلس بين يدى ذلك الشيخ وقال له : « وأين أنا وأين مكة ، ولا أجد ركبا ولا رفقة فى غير أشهر الحج ، فنظر إلى وأشار بيده وقال : هذه مكة أمامك ، فنظرت معه فرأيت مكة شرفها الله تعالى ، فتركته وطلبتها ، فلم تبرح أمامى إلى أن دخلتها فى ذلك الوقت ، وجاءنى الفتح حين دخلتها ، فترادف ولم ينقطع ، ثم شرعت فى السياحة فى أودية مكة وجبالها ، وكنت أستأنس فيها بالوحوش ليلا ونهارا » .

وحسبنا من كل ما يرويه ابن الفارض هنا أنه قد أظهرنا على الصلة الروحية التى نشأت بينه وبين مكة المشرفة ، وعلى ما كان لهذه الصلة من أثر فى حياته الروحية من ناحية ، ومن صدى يتردد نغما رائقا متسقا فى شعره من ناحية أخرى . وليس أدل على ذلك مما أشار به إلى حياته الروحية فى مكة ، وما قطف فيها من ثمرات الأنس والقدس ، وما تهيأ له فيها من نفحات الكشف والفتح ، وما كان يجده فى حياته الروحية المكية تلك من حب الذات الإلهية ، وأيثار للحقيقة العلية على كل ما فى الحياة الإنسانية ، فهو يقول :

يا سميرى روح بمكة روحى ... شاديا إن رغبت فى إسعادى
كان فيها أنس ومعراج قدسى ... ومقامى المقام والفتح بادى

وهو يقول أيضا :

وجنبنى حبيك وصل معاشرى ... وحببنى ما عشت قطع عشيرتى
وأبعدنى عن أربعى بعد أربع ... شبابى وعقلى وارتياحى وصحتى
فلى بعد أوطانى سكون إلى الفلا ... وبالوحش أنسى إذ من الإنس وحشتى
وزهد فى وصلى الغوانى إذ بدا ... تبلج صبح الشيب فى جنح لمتى

وهنالك فى أرض الحجاز المقدسة ، وفى أودية مكة المشرفة ، قضى سلطان العاشقين خمسة عشرة عاما سائحا متجردا مقبلا على الله ، وعلى البيت العتيق الذى يتردد فيه ذكر الله ، وعلى رسول الله ، وعلى آل بيت رسول الله ، لا يكاد يلم بأحد ، أو يظهر لأحد ، إلا حين كان يأتى إلى الحرم الشريف مطوفا به ، ومصليا فيه . أما ماذا كان للحجاز بصفة عامة ، ولمكة بصفة خاصة ، من أثر فى شعر أشعر شعراء الحب الإلهى من العرب ، فذلك ما أرجو أن أقف عنده فيما يأتى بعد من صفحات ، لعلك واجد فيها معى وما وجدت من أسطع الإشراقات وأروع النفحات .

وإلى أن يشيع عبير هذه النفحات ، ويشع نور تلك الإشراقات ، لا أجد خيرا من أن أنشدك أبيات سلطان العاشقين ، التى عبر بها عن بعض ما يحسه من أنين وحنين ، وتعظيم وتقديس لتلك البقاع الحجازية المشرفة ، وذلك إذ يقول :

أسعد أخىَّ وغننى بحديث من ... حل الأباطح إن رعيت إخائى
وأعده عند مسامعى فالروح إن ... بعد المدى ترتاح للأنباء
وإذا أذى ألمٍ ألمَّ بمهجتى ... فشذا أعيشاب الحجاز دوائى
أأذاد عن عذب الورود بأرضه ... وأحاد عنه وفى نقاه بقائى
وربوعه أربى أجل وربيعه ... طربى وصارف أذمة اللأواء
وجباله لى مربع ورماله ... لى مرتع وظلاله أفيائى
وترابه نَدِّى الزكى وماؤه ... وردى الروى وفى ثراه ثرائى
وشعابه لى جنة وقبابه ... لى جنة وعلى صفاه صفائى
حيا الحيا تلك المنازل والربى ... وسقى الولى مواطن الآلاء